ونحى نحوه، فاحتذى على مثاله ومثله، وانتهى قرابة ما انتهى إليه برسالته، كالعلماء المعصومين من عترته، ثم وسائر الربانيين من أمته، كلاً على حدة ومحتده والله من وراء القصد.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ۝٦﴾:

أدب جماعي تحمله آية النبأ، يقرر للجماعة المؤمنة كيف يتلقون الأنباء، فإنهم لا يشاهدون جمعاء حضور المباشرة، اللهم إلا قلة قليلة، ومن ثم تبقى الكثرة الكثيرة غائبة عن الإدراك المباشرة، ومن المستحيلات في الحياة الجماعية الاستقلال بما يشاهده الإنسان، دون استغلال لما يشاهده غيره فيشهد به، وهذه الآية كعديد أمثالها، تنهى عن الركون إلى أنباء الفاسقين إلا إذا تبين فيها صدق يجعله علماً كسائر العلم، الذي يعتمد عليه المؤمنون العقلاء، والعقلاء المؤمنون.

إن الأخذ والرفض في الأنباء ليسا فوضى دون حساب، وإنما لكلٍّ ميزان عادل، فلا يؤخذ خبر الفاسق إلا أن يتبين صدقه، ولا يرفض خبر العادل إلا أن يتبين خطأه، ثم لنا بين الأخذ والرفض وقفة لو لم يتبين لا صدق ولا كذب، وليس ذكر الفاسق هنا إلا لأنه أظهر مظان الكذب، فليشمل الجاهل والناسي والساهي وأضرابهم ممن يتطرق إلى أنبائهم خلاف الصدق وإن كانوا غير عامدين أو أن الفاسق يشملهم كلهم لأنه خروج عما يحق من طاعة الله، علماً أو عملاً، نقلاً للأنباء أو تنقلاً أم ماذا؟ فمن يجهل صحة النبأ ثم ينقله كنبأ صادق، إنه فاسق علمياً ولو كان زاهداً، بل وعملياً إذ لا يجوز هكذا نقلٍ مغرٍ لمن يتقي الله، وكذلك من ينسى أو يسهو، أو يتقبل الأنباء دون تبين، فإنه فاسق في نقله إلا أن يبين حقيقة الحال، فيتبين للمنقول له أنه ينقله مراعياً شرائط الوثوق مجانباً كل جوانب الفسوق في نقله

هذا النبأ، وإلا فتبينوا بغية حصول العلم الاطمئنان، مخافة: ﴿أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾!.

وكما يروى عن الإمام الصادق عليه السلام قوله للمنصور: «لا تقبل في أذى رحمك وأهل الرعاية من أهل بيتك قول من حرّم الله عليه الجنة وجعل مأواه النار، فإن النمام شاهد الزور وشريك إبليس في الإغواء بين الناس»[(١)] - ثم استشهد بالآية.

وترى هل يختص وجوب تبين النبأ: بالخبر العظيم الشأن، الذي جاء به فاسق، إذا كان في اتباعه دون تبين إصابة قوم بجهالة فندمٌ على هذه الإصابة؟ كما نلمح من هذه الآية، فلا يجب - إذاً - تبين في الأخبار غير العظيمة، أو في العظيمة التي يجيء بها المجهول فسقه أو عدله، أو التي يجيء بها فاسق وليست فيها إصابة قوم بجهالة أم ماذا!

في الحق أن آية النبأ لا تنبئ إلا عما أنبأت، لكنما الآيات في حرمة اتباع الظن واقتفاء ما ليس لك به علم تعمم وجوب التبين حتى يحصل العلم الاطمئنان أياً كان الخبر ومن أيٍّ، إلا إذا كان الاطمئنان - أو النوعي منه - حاصلاً بالإخبار ووجوب التبين في آيتنا في موردٍ لا ينفي عدمه في سواه، لنزول الآية في مورد خاص بالغ الأهمية، ثم الآيات الأخرى تعم فلا تناحر في البين.

وخطاب الآية هذه لا يشمل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لمكان ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ المختصة بالمؤمنين بالله والرسول، وأن الإصابة بجهالة والندامة عليها ليست من شيم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الذي ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، فلا تصدق عليه الروايتان في الوليد وعائشة[(٢)]، وقد تصدقنا الآية التالية لها، الناكرة لاتِّباع الرسول في هكذا أمور:

(١) أمالي الصدوق بإسناده إلى الإمام الصادق عليه السلام.

(٢) لقد رويت في شأن نزول هذه الآية روايتان، إحداهما عن طريق الفريقين في الوليد بن عقبة =

. . . . . .

= أن النبي ﷺ بعثه إلى الحارث بن ضرار الخزاعي ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة، فرجع قبل أن يصل إليه فقال: إن الحارث منعني الزكاة وأراد قتلي فضرب رسول الله البعث إلى الحارث فأقبل الحارث بأصحابه حتى إذا استقبل البعث وفصل عن المدينة لقيهم الحارث فقالوا: هذا الحارث فلما غشيهم قال لهم: إلى من بعثتم؟ قالوا: إليك، قال: ولم؟ قالوا: إن رسول الله ﷺ بعث إليك الوليد بن عقبة فزعم أنك منعته الزكاة وأردت قتله - قال: لا والذي بعث محمداً بالحق ما رأيته وما رآني - فلما دخل الحارث على رسول الله ﷺ قال: منعت الزكاة وأردت قتل رسولي؟ قال: لا والذي بعثك بالحق ما رأيت وما رآني وما أقبلت إلا حين احتبس علي رسول الله ﷺ خشيت أن يكون كانت سخطة من الله ورسوله - فنزل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ. . .﴾ [الحُجرَات: ٦] (الدر المنثور) أخرجه أحمد وابن أبي حاتم والطبراني وابن منده وابن مردويه بسند جيد عن الحارث بن ضرار قال: قدمت على رسول الله ﷺ فدعاني إلى الإسلام فدخلت فيه وأقررت به ودعاني إلى الزكاة فأقررت بها - قلت: يا رسول الله ﷺ! أرجع إلى قومي فأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة فمن استجاب لي وترسل الي يا رسول الله ﷺ إبان كذا وكذا لتأتيك ما جمعت من الزكاة، فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له وبلغ الإبان الذي أراد رسول الله ﷺ أن يبعث إليه احتبس الرسول فلم يأت فظن الحارث أنه قد حدث فيه سخطة من الله ورسوله فدعا بسروات قومه فقال لهم: إن رسول الله ﷺ كان قد وقَّت لي وقتاً يرسل إلي رسوله ليقبض ما كان عندي من الزكاة وليس من رسول الله ﷺ الخلف ولا أرى حبس رسوله إلا من سخطة فانطلقوا فنأتي رسول الله ﷺ . . وبعث. . .

أقول: لا يمكن قبول هذا الحديث هكذا - أن يعتمد رسول الله ﷺ على قول فاسق فيبعث إليه بعثة تقاتله، اللهم إلا أن «فزعم أنك منعته. .» تلمح إلى عدم ركون الرسول إلى قول عقبة - وأن البعثة كانت للتبين - والآية لا تشمل النبي فإنه تبين هنا - ولأن الذين آمنوا لا تشمل النبي على أية حال - إضافة إلى براءته عن الجهالة فإنه لا يصدر إلا عن وحي الله، والثانية ما رواها القمي في تفسيره - أن الآية نزلت في مارية القبطية أم إبراهيم وكان سبب ذلك أن عائشة قالت لرسول الله ﷺ أن إبراهيم ليس هو منك وإنما هو من جريح القبطي فإنه يدخل إليها في كل يوم فغضب رسول الله ﷺ وقال لأمير المؤمنين عليه السلام: خذ السيف وائتني برأس جريح فأخذ أمير المؤمنين عليه السلام السيف ثم قال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله ﷺ إنك إذا بعثتني في أمرك أكون فيه كالسفود المحمى في الوبر فكيف تأمرني أثبت فيه أو أمضي على ذلك؟ فقال له رسول الله ﷺ: بل تثبت - فجاء أمير المؤمنين إلى مشربة أم إبراهيم فتسلق عليها فلما نظر إليه جريح هرب منه وصعد النخلة فدنا منه أمير المؤمنين عليه السلام وقال له: انزل - فقال له: يا علي! اتق الله ما هاهنا أناس إني مجبوب ثم كشف عن عورته فإذا هو مجبوب، فأتى به=

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧﴾:

وي! كأنهم لا يعلمون أن فيهم رسول الله، الصادر عن الله لا عن آرائهم، السائر إلى الله لا إلى أهوائهم، فـ﴿فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِۚ﴾ لا: محمد بن عبد الله، ولا رسول اللهو والهوى، ولا بشر مثلكم في الجهل والخطأ، وإنما ﴿رَسُولَ ٱللَّهِۚ﴾ ﷺ لا يصدر إلا عن الله، ولا يدعو إلا إلى الله، فمن المحال أن يطيعكم في كثير من الأمر، فـ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ أمر الشرع وحكمه ﴿لَعَنِتُّمْ﴾ أثمتم وهلكتم فعجزتم أنتم عن إمرار الحياة الراحة، واستمرار الحياة السعيدة، وأخلدتم إلى حياة جهنمية فوضى، فترى لو أن الرسول أطاع الوليد بن عقبة في فريته على الحارث البريء، أو أطاع زوجته عائشة في جريح القبطي البريء، كم كان العنت الحاصل عن طوعهما هوى وجهلاً ﴿أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ ولكنه رسول

= رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: ما شأنك يا جريح؟ فقال: يا رسول الله ﷺ! أن القبط يحبون حشمهم ومن يدخل إلى أهليهم والقبطيون لا يأنسون إلا بالقبطيين، فبعثني أبوها لأدخل إليها وأخدمها وأؤنسها - فأنزل الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

أقول: والحديث مضطرب حسب الظاهر - إذ ينسب إلى الرسول ﷺ أنه أمر بقتل بريء بمجرد شهادة امرأة بظنة وتهمة - إلا أن في رواية عبد الله بن موسى عن أحمد بن راشد عن مروان بن مسلم عن عبد الله بن بكير قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام جعلت فداك كان رسول الله ﷺ قد أمر بقتل القبطي وقد علم أنها كذبت أم لم يعلم؟ وإنما دفع الله عن القبطي القتل بثبت علي عليه السلام؟ فقال: قد كان والله أعلم - ولو كانت عزيمة من رسول الله ﷺ ما رجع علي حتى يقتله ولكنه إنما فعل ذلك رسول الله ﷺ لترجع من ذنبها فما رجعت ولا اشتد عليها قتل رجل مسلم بكذبها.

أقول: ولكن يبقى هنا أن رجوع امرأة عن ذنبها - وما رجعت - لا يبرر إرهاب وإهانة رجل مسلم بريء - وإن ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ليست لتشمل الرسول ﷺ كما في قصة عقبة وإن الجهالة لا تنسب إلى النبي ﷺ وهو لا يمضي إلا بأمر الله.

الله ﷺ لا يطيع في الأمر إلا الله، فإنما النصح لكم بلسانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ...﴾ لا له وهو النزيه عن اتباع هواه أو سواها، إلا وحياً يوحى، فضلاً عن أهوية سواها ولا سيما الفاسقين!

فلا ترغبوا في اتباعه ﷺ لكم، ولا ترقبوا أن يتابعكم: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾[١] ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾[٢] اللهم إلا في قليل من الأمر الذي لا بد ويوافق الحق، حيث الكثير فقط في العادة هو الخاطئ لأنهم يتبعون الظن وما تهوى الأنفس: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾[٣] ومن ثم القليل هو المصيب: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾[٤].

فاعلموا أنه الرسول، جاء ليزيل عنكم وصمات العنت، ويبعدكم عن خطوات الغلط، فكيف يزيدكم عنتاً على عنت وغلطاً على غلط؟: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٞ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾[٥].

وي! كأنهم لم يعلموا أن فيهم رسول الله ﷺ، وإنما إنسان لهم أذنٌ، يسمع ما يقولون ويطيع ما يهوون، كلا! وإنما ﴿أُذُنُ خَيْرٖ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[٦]! أذن الخير الإيمان، فليس إلا في قليل من الأمر.

إن من مقتضيات العلم: أن فينا رسول الله ﷺ، أن لا نتقدم بين يديه،

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٧١.
(٢) سورة الشورى، الآية: ١٥.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١١٦.
(٤) سورة سبأ، الآية: ١٣.
(٥) سورة التوبة، الآية: ١٢٨.
(٦) سورة التوبة، الآية: ٦١.

ولا نرفع أصواتنا فوق صوته، ولا نجهر له بالقول كجهرنا لبعض، ولا نطمع أن يطيعنا في كثير من الأمر، بل نكون له طوعاً وسلماً ولكي نسلم عن النكبات على ضوء الإسلام الإيمان، كما الله حبَّبه إلينا:

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾: حبب الإيمان بالله، فصرتم تحبون الله، إذاً فاتبعوا رسول الله ﷺ: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ﴾(١) فـ «هل الدين إلا الحب»؟(٢) كلا!، إنما «الدين هو الحب والحب هو الدين»(٣)!.

وتحبيب الإيمان إلى الإنسان كتقدمة لتزيينه في قلبه، تحبيب «إلى» وتزيين «في» فالدعاة إلى الله من جانب، بما يحملون رايات الدعوة الحنونة الحبيبة، وحب الإنسان فطرياً وعقلياً للإيمان - بما فطر الله - من آخر، يجعلان - متعاملين - ركيزة لحب الإيمان في روح الإنسان، عقلاً وصدراً وإلى قلبه، ومن ثم يأتي دور تركيزه في القلب ﴿وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ تعاملاً بين عقيدة الإيمان وعمل الإيمان فيزدادوا إيماناً على إيمان: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾(٤) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾(٥).

فلا تزيين للإيمان في قلب ما لم يدخل فيه، ولا يدخل فيه، إلا من

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣١.
(٢) محاسن البرقي بإسناده عن أبي جعفر الباقر عليه السلام في حديث له قال: يا زياد ويحك وهل الدين إلا الحب ألا ترى إلى قول الله ﴿إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ﴾ [آل عِمرَان: ٣١] ألا ترون قول الله لمحمد ﷺ: ﴿حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ [الحُجرَات: ٧] وقال: ﴿يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ﴾ [الحَشر: ٩] وقال عليه السلام: الدين هو الحب والحب هو الدين.
(٣) المصدر السابق نفسه.
(٤) سورة محمد، الآية: ١٧.
(٥) سورة المجادلة، الآية: ٢٢.

يتحبب له بعد ما حببه الله إليه، وقبل هذا وذاك لا تحبُّب ولا تزين بالإيمان حتى يكره الكفر والفسوق والعصيان فيكرهها وقد فعل:

﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾: فالكفر مقابل الإيمان، والفسوق خروج عما يقتضيه الإيمان من طاعة إلى تخلف، فهو إذاً سبب موصل إلى العصيان، وقد كرَّه الله لنا هذا الثالوث المنحوس مع ما حبب إلينا الإيمان، ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ إذ لا جبر ولا تفويض بل أمر بين أمرين، فمن يختار الإيمان زاده الله إيماناً على إيمان، ومن يختار الكفر والفسوق والعصيان ختم الله على قلبه بطابع اللاإيمان، فآية تحبيب الإيمان لا تجعل كل المخاطبين من المؤمنين غير العاصين، أو قد جمعت بينهم كلهم في ذلك ترغيباً وتشويقاً وتوحيداً لصفوف الإيمان، لا أنهم كلهم بالغون تلك الدرجة من الإيمان، وإنما الله ينبههم بما فعل فناظرٌ ماذا يفعلون، وهم درجات في إيمانهم كما أن سواهم دركات في كفرهم وفسوقهم وعصيانهم، و«أولئك» الأكارم المؤمنون ﴿هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ الذين رشدوا في صراط الحق، لا بحول وقوة منهم فقط - وإنما:

﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾:

عليم بعجزكم، حكيم في فضله لكم، : ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[1] ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[2] ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾[3].

هذا طرف من أدب الإصلاح فيما يفسد بينكم من فرية سوء أم ماذا؟ استصلاحاً لما بينكم، ومن ثم تنتقل المسؤولية إلى الإصلاح في معارك أخرى كما بين أخويكم:

(١) سورة البقرة، الآية: ٦٤.
(٢) سورة النساء، الآية: ٨٣.
(٣) سورة النور، الآية: ٢١.

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۚ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾﴾:

رغم أن الأخوة الصادقة والصلح البالغ هما لزام الإيمان كما خوطبوا به، إلا أن هناك، وبين غير الكاملين في الإيمان، أو الجاهلين والمتجاهلين شرائط الإيمان، هنا وهناك نزوات ونزعات واندفاعات فخصامات وحميات وحماسات فتفككات ومنازعات شاسعة عن ساحة الإيمان، قد تتخطى التلاسن والتضارب إلى مقاتلات، رغم أن الإيمان قيد الفتك ولكن ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[1] غير خالصين في الإيمان الموحد، ومهما يكن من شيء فالمؤمن لا يحارب أخاه إلا على تكلف، وعلَّ الاقتتال الملمح - إليه، دون التقاتل - يعنيه «اقتتلا» لا «تقاتلا» حيث الاقتتال افتعال للقتال متكلَّف وليس فعلاً مقصوداً وبين المؤمنين الإخوة!

وإلا ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا... وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾[2] فهل هو بعدُ مؤمن؟!.

فلا بد إذاً من صيانة إلهية تصوِّن على هذه الفوارق الدامية، وتعتلج ما تختلج في خلد الإيمان من فكرة الاقتتال، ومن ثم واقعه إذا حصل، ألا وهي استنفار سائر المؤمنين لمواجهة المشكلة الداخلية إصلاحاً، مهما كان الثمن غالياً ولو كان القتال قضاء على قتال.

وترى من هم المأمورون بالإصلاح، أو القتال إذا لزم الأمر؟ فهل إنه أمر فوضى بين دويلات صغيرة إسلامية - إن صح التعبير - وبين شعوب

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠٦.
(٢) سورة النساء، الآيتان: ٩٢، ٩٣.

متشعبة حسب الدويلات، فيزيد ويلات على ويلات، لأنهم مختلفون في اجتهادات أو سياسات؟!.

كلا! إنه أمر موجه إلى سائر المؤمنين العائشين تحت قيادة واحدة إسلامية، دولة إسلامية واحدة بشعبها الموحد، لا تفصل بينهم قوانين أو حدود أم ماذا؟ فالآية هذه وأضرابها تلميح أو تصريح بضرورة تأسيس دولة واحدة إسلامية، لا دويلات هي ويلات على المسلمين، وظروف استعمارات للكافرين.

ثم ترى: وإذا لم تكن كما الآن، فهل المؤمنون يعيشون مكتوفي الأيدي عن كل شارد ووارد فتكثر الفوضى، كلا! فإن إزالة الظلم والضيم واجبة على طول الخط، مهما اختلفت درجاتها، فعلى المؤمنين العائشين في أرض المعركة أن يصلحوا بين أخويهم إن استطاعوا، على قيادة محلية عالمة عادلة، وإلا فليستنصروا مَن قِبلهم حتى تحصل الكفاية، فإنه فرض كفائي وليس عينياً على المؤمنين كافة، اللهم إلا إذا لزم استنفار المؤمنين كافة، فإن الإصلاح الداخلي ركن يرتكن إليه المؤمن، على ضوء تقوى الله التي هي ركن الأركان، ومن ثم الإصلاح الخارجي.

وترى أفي اختلافِ ضميرَي: «اقتتلوا وبينهما» تلميح معنوي؟ أم - فقط - سماح أدبي أن يعبر عن التثنية بالجمع كما في نظائرها؟ عله تلميح إلى واقع في هكذا اقتتال بطبيعة الحال، إن الاثنينية هي البداية في القتال، ثم تنمو وتزهو من طائفتين إلى طوائف، بتحزبات جزئية داخل كل منهما، ثم يرجع المقتتلون في محاولة الإصلاح كما كانوا طائفتين، حيث المصلحون لا يستطيعون إصلاحاً إلا بتضييق دائرة الخلاف إرجاعاً إلى الاثنينية البادئة ثم الوحدة المرادة -: فهم بداية ونهاية اثنتان «طائفتان.. بينهما.. إحداهما» بينهما جمع «اقتتلوا» فهم في دور الإصلاح اثنتان - بغياً: ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ﴾ وفيئاً إلى أمر الله: ﴿حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾. ٣٨٩

وهذا الوجه المعنوي يوافق الأدب اللفظي أيضاً، فإن أقل الجمع اثنان، فلا تفنُّن هنا في التحول من جمع الاثنين إلى أكثر، إلا تلميحاً إلى معنى كهذا وأضرابه.

ثم الطائفتان المتقاتلتان لهما حالات من حيث البغي المقصود وسواه:

١ - أنهما باغيان من كل جهة مقصودة ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۚ﴾ إزالة للبغي بينهما ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾ إن استمرت في البغي، أو تحولت إلى بغي آخر أو بغي الأخرى ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ﴾.

٢ - أو أنهما باغيان جهلاً وسوء تفاهم دون تقصُّد؟ فكذلك الأمر، كما وإذا استمرا في بغي مقصود وسواه «فقاتلوهما حتى يفيئا إلى أمر الله» قتال هو نضال للإصلاح وإن شملهما إذا بغتا.

٣ - أو أن إحداهما باغية قصداً أو سواه، ثم عند الإصلاح استمرت أو غيرت بغيها إلى وجه آخر، أم تابت ولكن الأخرى بغت ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي﴾ سواء أكانت البادئة هي المستمرة، أو الأخرى هي البادئة بعد الأولى، فلا يكون القتال الإصلاح إلا مع التي تبغي بعد محاولة الإصلاح.

فالمصلحون يبتدئون بالإصلاح الموعظة والإيضاح ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۚ﴾ بأية وسيلة ممكنة عظة وبرهاناً، فمن يتجاهل هذه اللغة الواعظة، فلغة القتال ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي﴾ ولكن إلى حدٍّ وليس فوضى انتقام: ﴿حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ الذي تحققونه في الإصلاح، والذي أمر من تحقيق الأخوة الإيمانية ﴿فَإِن فَآءَتۡ﴾ الباغية: كرهاً هنا ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۚ﴾ حيث الفيء إلى أمر الله طوعاً هناك هو الصلح بعينه فلا حاجة في الإصلاح، ولكنما الفيء كرهاً هنا بحاجة إلى إصلاح بعده، يحدده عند حده لكي لا يتكرر، وذلك بتحكيم بنود الاتفاق، ولكنه ﴿بِٱلۡعَدۡلِ﴾ دون أن تتحكم فيه روح الانتقام ﴿وَأَقۡسِطُوٓاْۖ﴾ هنا وهناك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾.

فهنا إصلاح أول طوعاً، وإصلاح ثان كرهاً، وقتال قبل الثاني إذا لزم الأمر، وليكن هذا المثلث المصلح عدلاً وقسطاً، وهكذا ينتهي دور الإصلاح بين المؤمنين إلى حفاوة وحنان وعدل وإحسان بفضل الملك المنان والله هو المستعان.

هكذا تؤمر الجماعة المؤمنة أن تتوسط مُصلحة عادلة مقسطة بين المؤمنين، فضلاً عما بينهم وبين الكافرين، فليكونوا مع هؤلاء ضد أولاء عدلاً وإيماناً، فماذا ترى في دويلة تدعي الإيمان النضال، تم تدخل معركة الاقتتال بين مسلمين ومسيحيين صهاينة، ثم لا تحارب إلا المسلمين لصالح الصليبيين الإسرائيليين، وتسمي هذه الوحشية العارمة إصلاحاً؟ أنا لا أدري، اللهم ارجعنا إلى الإسلام واجمع شمل المسلمين، واجعلنا كما أمرتنا إخوة مؤمنين:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾:

إنه ليس الإيمان - فقط - علاقة شخصية بين المؤمن وربه، بل وعلاقة أخوية جماعية أيضاً بينه وبين سائر المؤمنين، بل وليست بينهم أية علاقة ورباط إلّا أخوة إيمانية، كل ذلك بدافع الإيمان وسناده، يلمح له الحصر: «إنما» التي تحصر كافة المناسبات بين المؤمنين بالأخوة ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ لا «إنما الأخوة المؤمنون» فإن هناك أخوَّات أخرى بين سائر الناس ليست بالتي تحصر مناسباتهم بالأخوة الألفة الخلة، بل وتتبدل - وعلى أقصى الحدود بعد الموت - بالعداوة ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾[1] وإذا كانت هذه حالة الخلة غير الإيمانية، فما هي حالة سائر الأخوات التي لا تستلزم الخلة؟.

(١) سورة الزخرف، الآية: ٦٧.

إن أخوَّة الإيمان تشريعية، وواقعية بدافع الإيمان، يؤمر المؤمن أن يؤصلها في حياته الجماعية لحد لا تبقى بين المؤمنين إلا الأخوة، وليست هي الأخوة الخَلقية كما بين الناس أجمعين، ولا أخوة القرابة الشرعية التي تحرم فقط النكاح، ولا الإقليمية أو العنصرية أو الحزبية أم ماذا من أخوَّات غير إيمانية، فإنها ليست لزاماً بين هكذا إخوة من حيث الألفة والمحبة، ولا أن مناسباتهم محصورة في الإخوة، اللهم إلا إخوة الإيمان فـ: «المؤمن أخو المؤمن كالجسد الواحد إن اشتكى شيئاً منه وجد ألم ذلك في سائر جسده، وأرواحهما من روح واحدة وإن روح المؤمن لأشد اتصالاً بروح الله من اتصال شعاع الشمس بها»[١] فـ «هو عينه ومرآته ودليله، لا يخونه ولا يخدعه ولا يظلمه ولا يكذبه ولا يغتابه»[٢] فـ «إن المؤمن ينظر بنور الله أن الله خلق المؤمنين من نوره وصبغهم في رحمته وأخذ ميثاقهم بالولاية على معرفته يوم عرَّفهم نفسه، فالمؤمن أخو لأبيه وأمه، أبوه النور وأمه الرحمة، وإنما ينظر بذلك النور»[٣].

هكذا أخوَّة تقتضي بينهم عموم التآزر في عامة الحياة، دون أي تنافر وتناحر ومن ثم إذا شذَّت طائفتان منهم فاقتتلوا، فأخوَّة الباقين معهم تقتضي محاولة الإصلاح الصارم أياً كان الثمن ولو بالقتال مع الباغية حتى تفيء إلى أمر الله، دون اغتنام فرصة لأخذ الغنيمة، ولا أن يجهز على جريح منهم أو يقتل أسير، أو يتعقب مدبر ترك المعركة، حيث الهدف من قتالهم إصلاحهم، وإنما تدور المعركة بين سائر المؤمنين وبين المقتتلين حول فلك الإصلاح

(١) أصول الكافي بإسناده إلى أبي بصير قال: سمعت أبا عبد الله جعفر بن محمد عليه السلام يقول: . .

(٢) المصدر بإسناده إلى الحارث بن المغيرة عنه عليه السلام: . .

(٣) بصائر الدرجات بإسناده عن معاوية بن عمار قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: جعلت فداك هذا الحديث الذي سمعته منك ما تفسيره؟ قال عليه السلام: وما هو؟ قال: إن المؤمن ينظر بنور الله، فقال: يا معاوية؟ إن الله . .

الأخوي بدافع الإيمان دون المعارك الأخرى كما بينهم وبين الكفار، فإن لها شروطها وأحكامها الأخرى.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ فتقوى الله زاد المؤمنين الإخوة في أخوتهم، وزادهم في إصلاحهم بين أخويهم، فهي زادهم في مبدئهم وفي معادهم، يعيشونها على طول الخط.

فكل مفاصلة بين المؤمنين هي خلاف الإيمان، وخلافٌ على كتلة الإيمان، كمن يهرفون بما لا يعرفون أن جماعة الشيعة الإمامية مشركون، أم تاركون الكتاب أم ماذا؟ من افتراءات اختلقها الاستعمار الكافر، واستغل في ذلك جهل جماعة بعيدين عن سائر إخوتهم المؤمنين، ثم أخذ ينفج وينفخ في أبواق الخلافات حتى جعل من فريقي المسلمين مسلمين وغير مسلمين، يري كلٌّ أخاه بالخروج عن الدين، فلتقطع ألسنة حدادٌ توسِّع هذه الخلافات، ولتكسر أقلام تزيدهم عداء فعِناء، ولتوحد كلمة المسلمين على دعائم الإسلام، دون أن يحملهم مختلف الاجتهادات على مباغضات، فللمخطئ أجر واحد وللمصيب أجران، ثم للمفرق أوزار تحمله إلى النار، وكما هو يشعل النار بين المؤمنين الإخوة، فإذ نؤمر أن ندعو أهل الكتاب إلى كلمة سواء: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾[1] فأحرى بنا ونحن مسلمون أن يدعو بعضنا بعضاً إلى هذه السواء على سواء، وأن نصلح بين أخوينا ونتقي الله لعله يرحمنا[2].

(١) سورة آل عمران، الآية: ٦٤.

(٢) فقولة من تسمى شيعياً لأخيه المتسمى سنياً: أنت من أهل النار إذ لست من أهل الولاية قولة فارغة هراء، كما أن قولة الآخرين للأولين: أنتم مشركون تعبدون الأوثان هراء فارغة، فلماذا هم مشركون؟ ألأنهم يقبِّلون ضريح الرسول حباً له؟ فهل لا تقبِّلون أنتم أولادكم =

ثم وإن الإصلاح بين المؤمنين لا يخص حالة التقاتل الحرب، وإنما التخالف - أيُّ تخالف - من شأنه اختلاق الانقسامات والتفرقات، التي تنفصم بها عرى الوحدة، فتنقسم بها الكتلة الواحدة المؤمنة، فتنحسم هيبتهم من قلوب الكتل الكافرة، وخلاف ما يقول الله: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن

= وأحباءكم حباً لهم - ثم وليس التقبيل عبادة مهما كان - وحتى إذا قبل رجل أحد من الأولياء احتراماً له فإنه محرم وليس شركاً، فمن قال لكم إن الشيعة الإمامية يقبلون ضريح النبي عبودية له، اللهم إلا الاستعمار الذي هو من النفاثات في العقد، وهل يقبل عاقل أن جماعة من المؤمنين جاؤوا من آلاف الكيلو مترات لعبادة الحديد؟ إن هذا إلا إفك مفترى!.

ثم نقول للأولين لماذا تجانبون إخوتكم في الإيمان فتجنبون عن الصلات معهم أو مصافحتهم أو تحادثهم، فقد يقولون أن جهالاً منهم يمسون من كرامتنا لماذا نقنت في صلاتنا، ولماذا لا نتكتف أم ماذا؟ فنقول للآخرين: هذه عقيدة المذهب هم تابعوها، كما أن لكم غيرها وأنتم متبعوها، فليس لمقلد في مذهب أن يعترض على مقلد في مذهب آخر لماذا لست على مذهبي، وإنما للمجتهدين أن يجادلوا مع بعض وبالتي هي أحسن.

ومن طريف المناظرة أن شرطياً قبض على شيعي في الحرم المكي المبارك وأخذه إلى مركز الشرطة وهو كان يقرأ القرآن، قائلاً له: لماذا تقرأ هذا الكتاب؟ قال: إنه القرآن وهل أن قراءته محظورة في المسجد الحرام؟ قال: لا - ولكن قرآنكم يختلف عن قرآننا! قال: كلا! فخذ هذا القرآن المطبوع في إيران وقاسه على سائر القرآن فلا تجد نقطة اختلاف! قال: ليست لي هذه الفرصة ولكن قل لي: لماذا أنت شيعي ولست مسلماً؟ قال: أنا شيعي لأنني مسلم سني! قال: كيف يا غبي! قال: يا أخي لأن سنة رسول الله ﷺ تأمرنا أن نشايع باب مدينة العلم علياً عليه السلام! فسكت ومن معه ثم قالوا: هؤلاء لهم قوة الجدال وإنما دينهم التقية.

فانظر إلى هذه المهازل التي اختلقها الاستعمار فأصبح من جرأته بيت الله الآمن وبلده الأمين محوراً للمعاركات والمضاربات والافتراءات والله تعالى يقول: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البَقَرَة: ١٢٥].

فلنفرض أن الشيعة الإمامية - ولا سمح الله - مشركون! فلماذا يسمح لهم دخول الحرمين الشريفين والله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا...﴾ [التّوبَة: ٢٨] ولو أنهم مسلمون منحرفون، فلتقم جماعة علماء عارفون بدعوتهم إلى الحق بالحكمة والموعظة الحسنة، لا بالهتك والفتك والضرب والإهانة، فإن ذلك لا يزداد إلا بعداً ولا يخلف إلا مرضاة المستعمرين، الذين جعلوا من مركز الوحدة الاسلامية ميدان المعركة الضارية، والله المستعان وعليه التكلان.

قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[١].

إن الإصلاح هنا - أيَّ إصلاح - يقوم على دعائم العدل والقسط والإيمان والتقوى، على غرار ما يقرره كتاب الله، دون الأهواء والمصلحيات السياسية المجانبة لشريعة الله، ودون الاستبدادات في أية اجتهادات، وإنما ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[٢].

وإنه إصلاح ما فسد بين المؤمنين، من عقائدي واقتصادي وسياسي، ومن فردي وجماعي أم ماذا؟ فليعش المؤمنون حياة الصلح مع بعض، وليكونوا يداً واحدة على من سواهم.

فعلينا أن نذرف دمعة الدماء، مما نرى بيننا من عداء، تنفث في توسيعها الأعداء، فالله إذاً منا - كما منهم - براء، إلا أن نهتدي بهدي الله، ونعتصم بحبل الله.

(١) سورة الأنفال، الآية: ٦٠.
(٢) سورة الشورى، الآية: ٣٨.

الفهرس

الموضوع الصفحة

تتمة سورة الزخرف

سورة الزخرف، الآيات: ٤٦ - ٦٧ ..... ٧
سورة الزخرف، الآيات: ٦٨ - ٨٩ ..... ٢٨

سورة الدخان

سورة الدخان، الآيات: ١ - ١٦ ..... ٤٩
سورة الدخان، الآيات: ١٧ - ٣٣ ..... ٦٨
سورة الدخان، الآيات: ٣٤ - ٥٩ ..... ٨٠

سورة الجاثية

سورة الجاثية، الآيات: ١ - ١٣ ..... ٩٩
سورة الجاثية، الآيات: ١٤ - ١٩ ..... ١١٢
سورة الجاثية، الآيات: ٢٠ - ٢٧ ..... ١٢١

سورة الجاثية، الآيات: ٢٨ - ٣٧ ..... ١٣٢

سورة الأحقاف

سورة الأحقاف، الآيات: ١ - ١٤ ..... ١٤٣
«كتاب أو أثارة من علم»؟ ١٤٨
سورة الأحقاف، الآيات: ١٥ - ٢٠ ..... ١٦٧
سورة الأحقاف، الآيات: ٢١ - ٢٨ ..... ١٩٠
سورة الأحقاف، الآيات: ٢٩ - ٣٥ ..... ٢٠٦

سورة محمد

سورة محمد، الآيات: ١ - ١٥ ..... ٢٢٣
سورة محمد، الآيات: ١٦ - ٣٢ ..... ٢٤٩
سورة محمد، الآيات: ٣٣ - ٣٨ ..... ٢٧٧

سورة الفتح

سورة الفتح، الآيات: ١ - ١٠ ..... ٢٨٧
سورة الفتح، الآيات: ١١ - ١٧ ..... ٣٢١
سورة الفتح، الآيات: ١٨ - ٢٧ ..... ٣٣٦
عمرة القضاء ٣٥٣
سورة الفتح، الآية: ٢٨ ..... ٣٥٥

سورة الفتح، الآية: ٢٩ ..... ٣٥٨
أنباء الملكوت وأبناؤه ٣٦٦

سورة الحجرات

سورة الحجرات، الآيات: ١ - ١٠ ..... ٣٧١